ذكريات عن الأخطل الصغير

بقلم الدكتور جبور عبد النور

اذا كان الاتباعيون يذهبون الى القول بان اكره الامور الى نفس السامع او القارىء هو ان يتحدث المتكلم او الكاتب عن نفسه ، فسأرقى الآن قمة المكروهات ، لان كلمتي تتناول ، بالاضافة الى التعليقات والهوامش ،ملامح من حياة الشاعر عرفتها معرفة مباشرة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٣ ، عندما كان (البرق الادبي) في اوج ازدهاره ، وفي احسن ايام عافيته . واعتمادي هذا الاسلوب ما هو الا للنسج على منوال الاخطل الصغير الذي ابرز في مقالاته المتتابعة (من بقايا الذاكرة) صورا طريفة ومشاهد شائقة عن فرسان الادب الذين دار هو في فلكهم او داروا هم ، من بعد ، في فلكه .

كنا آنذاك ثلاثة طلاب ، نخطو خطواتنا الاولى في عالم الكتابة : رئيف خوري ، فقيد الظرف والادب ، وفؤاد مفرج الذي اخترمته المنية وهو في ابان تفتحه فذهب ضحية حادث سيارة في الولايات المتحدة حيث كان يعد رسالة دكتوراه في العلوم السياسية ، وكاتب هذه الكلمة. وما اشك – وان كنت انطق بلسان غائبين ، كما اعبر عن شعوري – في ان مرانا في ادارة (البرق الادبي) فتح ابصارنا على امور لا يتاح الوقوف عليها في كتب او على مقاعد مدرسة. واذكر ان رئيف خوري كان اخصبنا انتاجا واغزرنا مادة ، وان العمل الذي اتخذته على عاتقي ، او كلفت به ، هو كتابة اقصوصة العدد والرواية المتسلسلة. فكان منها الكثير من الرديء ، والقليل القليل من الموفق. وتحضرني ذكرى يوم جئته بمقطوعات شعرية وطرحتها بين يديه اطلب منه رأيه ، وانا امني النفس ان تحظى برضاه فاراها مطبوعة على صفحات جريدته . فاجال فيها البصر وقال انها تحتاج الى تعديل وتشذيب وصقل وتهذيب. وفي اليوم التالي كان عددها قد هبط الى مقطوعتين اثنتين ، بعد ان رمى اكثرها في سلة المهملات وبادرني قائلا ، مطيبا خاطري : « قبل ان يدب حبر المطابع في شعري وادت عشرات القصائد ، واسقط الشيخ اسكندر العازار المئات من ابياتي فلا تعتب ولا تحزن ،ولكن اليك مني نصيحة مخلصة : اذا شئت الا تجوع دعك من الشعر فانه اقرب الطرق الى ضياع صاحبه » . ولم اتبين آنذاك اكان يخاف عليّ من الشعر ، ام كان يخاف على الشعر مني . ولكنني فرحت كالطفل بثوب العيد عندما قرأت المقطوعتين منشورتين في العدد التالي من البرق وقد ذيلتا باسمي . ولست بحاجة الى التأكيد على ان ملامح جمالهما انما هي تضوع من القلم الذي اجراه بسخاء فيهما .

واذكر ايضا قيام نخبة من فتيان الادب آنذاك تسمت بعصبة العشرة . تلاقت في مكاتب مجلة (المعرض) لصاحبيها ميشال ابو شهلا ، وضمت في صفوفها خليل تقي الدين والياس ابو شبكة وفؤاد حبيش . وكان هؤلاء قد بدأوا ينهدون الى شهرة واسعة ، وصيت عريض . واخذت الجرائد والمجلات تتحدث عنهم ، وتعنى باخبارهم لخروجهم عن المألوف في الصنيع المتعارف عليه ،ولطلوعهم على القراء بنفثات متحررة في النظر الى امور الناس ، وفي تسمية الاشياء باسمائها ولاخراجهم في العربية طرفا من الاداب الاجنبية واخبارها،بالاضافة الى فنهم الاصيل. ورأوا ان اخصر الطرق وأقربها الى بلوغ هدفهم التصدي للرؤوس الكبيرة ، وابرزها آنذاك بشارة الخوري الذي كان قد توصل بشعره الغزلي وبقصائده الوطنية الى تبوء مرتبة مرموقة داخل لبنان وخارجه . فتصدت له ، كما تصدت لامير الشعراء احمد شوقي ، وعقدت المقالات التي تتناوله بالنقد المر . ففي ١١ من ايار سنة ١٩٣٠ نشرت (المعرض) مقالة بقلم بشار ، وهو لقب عرف به احد اعضاء عصبة العشرة ، عالج فيها مفهوم الشعر ، قال :« لا نرمي من نقدنا هذا الا الى تخليص الشعر من قيود التقليد الثقيلة التي لا تزال تمنعه عن الحركة والانفلات ، واننا نريد الشعراء على ان لا يصغوا الا الى صوت الالهام والوحي ، ولا ينظروا الا في قرارات نفوسهم حين ينظمون ، فان لم يستطيعوا فلا ينظموا ، ذلك خير لهم ولنا وللشعر وابقى الخ . . » ولحق بهذه المقالة اخوات لها حللت قصائد شهيرة للاخطل الصغير ، واتسمت بتقصي العيب والتغافل عن الحسنة ، وتخريج المعاني على غير ما وضعت له . فكان الشاعر يقرأ ما يكتب ، وفي نفسه جيشان البركان ،لان الكلمة الواحدة المسيئة كانت تقض عليه المضاجع . وقد رافقنا هذه المرحلة ، وتبينا اثر الحملة في تصرفه وتفكيره. واسهمنا ، ضمن قدراتنا وامكاناتنا في الرد ، والححنا عليه في ان يفجر الالم الكظيم من شق قلمه ، فاكب يوما، وقد ضاق ذرعا بالناقدين وبالحافنا ،فكتب مقالته المشهورة (صليب المقابر ، او الحسود العاثر ، او فلان)، وانزل هو في مكان فلان اسم مضطهده . واعلن في (البرق) ، ضمن اطار بارز هذا العنوان ،على ان يدرج المقالة في الاسبوع القادم . وسألناه عن الحكمة في التأجيل

فقال : اذا نشرت كلمتي في عدد اليوم فسيقراه من وجه اليه ويفمى عليه مرة واحدة . واما انتظاره الى الاسبوع المقبل فيرميه مغشيا عليه كل يوم الف مرة مدة سبعة ايام. وما اكتفى بما كتب ، وبما رد به نثرا ، بل تحين اول فرصة سانحة ليغمز من قناة ناقديه (ناثر وشاعر) وليقول فيهما موجها كلامه الى عمر بن ابي ربيعة :

حلق ولا تحفل لزرى حاسد لو انبرى لحتفه شويعر
عاب على البلبل ما يطرحه من ريشه وهو به يأتزر . . .

. . . .

كانت السهام التي اصابته من (عصبة العشرة) ومن فيلسوف الفريكه ، امين الريحاني في (انتم الشعراء)، ومن مارون عبود باعنا لان يتفوق على نفسه ، ويسمو بحاضره على ماضيه . ولان يعتبر كل قصيدة من قصائده درجة صاعدة في سلم تكامله .

يخطىء من يعتقد ان الاخطل الصغير كان ينظم كما يغرد الطير ، وكما تضوع الزهرة ، ويسقسق الجدول . فما بلغ المدى الذي وصل اليه الا بالعناد والصبر الطويل والجهد المضني والتحدي للنقاد والحساد . وهذه القصائد التي نطالعها له في الوقت الحاضر فتجري على السنتنا وكأنها قد تنزلت في قوالبها واخيلتها تنزلا طبيعيا عفويا ، فاكتست بهذه الحلة من البساطة ، ما تبلورت في بنيتها الا بعد السهر والعناء . فقد كان ـ رحمه الله ـ يود ان تؤثر عنه السهولة في النظم، والسرعة في الخاطر ، ولكن الحقيقة انه كان يعاني مخاضا عسيرا، ونادرا ما يرضى عما يكتب ، فيعيده مرة ومرات ، الى ان يخرج من يديه كائنا سويا . ولقد قيض لي ان احضر ولادة عدد من قصائده ، وبخاصة الهائية التي رثى فيها امير الشعراء احمد شوقي ، واتت مدماكا ركينا في صرح شهرته ، فرأيته يتجرع في صياغتها الامرين ، يجمع القوافي ، وينظم الخاتمة ، ويرتد الى المطلع ويسبك ابياتا من اقسامها المتوسطة ، ثم يعود فيحذف ويضيف ويعدل من هنا كلمة ومن هناك بيتا بكامله مقدما مقطعا على اخر الى ان تنتهي الى ما هي عليه في ديوانه وكأنها هبطت عليه وحدة تامة متناغمة . واذكر انني ابديت له تعجبي لما اصاب سطور المسودة من تمثيل وتشويه فما كان منه بعد ان بيضها بخطه الجميل الواضح الا ان دفعها اليّ لاحتفظ بها ذكرى .. وظلت بين اوراقي سنوات ، ثم غابت عن ناظري .

كان بشاره الخوري فنانا اصيلا لا يحمل المعجب به معاناة الحمل والمخاض والوضع معه ، وانما يعرض عليه نتاجا صقيلا ينسيه رؤية الازاميل المتحطمة على الرخام قبل اكتمال التمثال ، والقوافي والاوزان والالفاظ التي ضحيت قبل تمام القصيدة ، والنبرات الضائعة والاوتار المتقطعة قبل استواء اللحن . سر من اسرار الابداع يعرفه الشعراء والمثالون والموسيقيون والرسامون، فيكون لهم فيه شقاء الخلق ، ويكون لنا منهم سعادة المتعة .

ليس من التنبؤ القول ان مؤرخ الشعر في لبنان ، اذا ما وقف ، بعد رحلة في الزمن ، على الصنيع الذي غمر المجلات والكتب في خلال النصف الاول من القرن العشرين ستفيم امام ناظريه المعالم الجزئية ، وتتوارى تخوم وتلال ، وتختفي في المدى البعيد رسوم وآثار ظن اصحابها انها خالدة خلود الدهر . فلا يستوقف انتباه هذا المؤرخ الا قمم شاهقة سمت فوق ضباب النسيان .

ان ديوان الشعر كوجه الحسناء ، يتفتح قلبك له ، وتلذ عينك بمرآه ، وتتسقط اذنك كلماته . وتعمل الايام في الشعر عملها في الوجه الوسيم ، فتجعده ، وتعفي على ملاحته . ولكم طربنا حوالي عام ١٩٢٠ لقصائد نشرت آنذاك ، وافسحنا لها مقاما اثيرا في صدورنا ، وخطبنا ودها ، وتغزلنا بمحاسنها ، كما كنا نتغزل ببنات ذلك العهد . ونحن اليوم نتصبر على سماعها ولا نعود اليها الا لحاجة في درس ، او لتعيين مرحلة من مراحل التطور الادبي ، وقلبنا يشيح عنها ، كما يتحول نظرنا عن الفتيات اللواتي عرفناهن آنذاك في ريق الشباب ، فاصبحن الان اثرا من فتنة ، وحطاما من جمال . لنعد الى امسنا ولنسائل ذاكرتنا عن الدواوين التي طالعناها في فتوتنا من معارف ذلك العهد ، واثرت في نفوسنا ، واعتقدنا آنذاك انها الكلمة الفصل ، ولنبحث في مصيرها نجد ان ابناءنا لا يلتفتون اليها ، ولا يعنون بها ، كما نفعل اليوم نحن بسراج الزيت الذي استضاء به اجدادنا . فلكل جديد روعة ، ولكل عروس بهجة . وانما جديد اليوم هو عتيق الغد . ولا يثبت في وجه الزمن الا الشعر الاصيل الذي يستمد فتوته الدائمة من العناصر الثابتة فكرا وقلبا ولسانا .

فمن من فتيان الجامعات يقرأ الان لناصيف اليازجي وخليل الخوري ويوسف الاسير ؟ بل من يطالع بتوق وانفعال لادباء عاشوا امس امثال قيصر المعلوف وفؤاد باشا الخطيب والياس فياض وعبدالرحيم قليلات ؟ وكل منهم كان في زمنه ـ اي البارحة ـ مهوى الافئدة وقطب الاعجاب ؟

من المغالاة القول ان شعر الاخطل الصغير كله يتفلت من هذا المصير المحتوم ، وانه سيبقى ابد الدهر على السنة الرواة والمعجبين ، فلا تبين في قصائده شعرة واحدة بيضاء . فسنة الهرم تصيب الشعر كما تصيب الكائنات الحية بلا استثناء ، وستأتي على عدد لا يستهان به من مقطعاته فتغرق في عالم النسيان ، لزوال المناسبة الانية التي دعت الى ظهورها والى اقبال الناس عليها . ولكن واقعين اثنين سيكون لهما حكم قاطع في تقويم اثر شاعرنا ، وتعيين مكانته ، ويتنكبان بالتالي عن وقوع الدراسين في الشطط والتسرع في الحكم عليه وهما :

ـ مجيئه خاتمة لعهد ومطلعا لعهد آخر ،

ـ تعبيره العفوي عن الحب الخالد .

والواقع اننا عاجزون كل العجز عن تفهم النقلة الجذرية في الادب كله ، وبخاصة في الشعر ، من البهلوانية المتوارثة ، والرصف اللفوي ، والتلهي الذهني ، والاعجاز البلاغي الى النظريات الجمالية الحديثة اذا لم نتوقف عند الاخطل الصغير وبعض من اقرانه ، ونحل اللغز الكامن في تحررهم من التقليد الوقوفي ، وتطلعهم الى التجديد المتطور .

ما تقدم فن من الفنون الادبية في لبنان تقدم الشعر . فقد سما في زمن وجيز سموا مذهلا ، انتقل من عالم الى آخر ، وشاد مدارس ، وانشأ مذاهب ، وهدم قديما ، وبنى جديدا ، وحطم اصناما ، واقام انصابا ، حتى تبدلت مقاييسنا ، وتحولت اذواقنا واحكامنا ، واصبحنا لا نرضى الا بالمعجز منه . وبيّن ان الفارق الفني بين شاكر شقير الذي يفتتح محبوكاته في (الذهب الابريز في مدح السلطان عبد العزيز) ببيتين يضمنهما خمسة وثمانين تاريخا هجريا لسنة ١٢٨٨ على عدد حروفهما ، وبين الشعراء المعاصرين من سعيد عقل الى مدرسة (شعر) ، الى خليل الحاوي بالاضافة الى الطليعيين في البلدان العربية هو فارق لا يقاس بالايام والاعوام ، بل يؤخذ على انه نشأة مستحدثة وخلق جديد . فقد مسح السيل المعاصر كل ما وقف امامه من نظريات متوارثة واغرق لبنان في بحر من العقائد المستقاة من المنابع الثقافية العالمية او المتفجرة من الاصالة الذاتية . ولقد كان الاخطل الصغير ممثلا لمرحلة انتقالية متوسطة ، اي صلة بين جماعة العفوية في الخاطر ، والسلاسة في الكلمة والعذوبة في الجرس وجماعة التكثف الشعوري والثقافي والالتزام الفكري والاجتماعي والجمالي . ولنقل كلاما مألوفا في كتب الادب ، اعني لنقل انه كان مع جماعته برزخا بين جيلين ، بين عقليتين ، بين مفهومين ، ولا تتضح الصلة بينهما بافضل مما تتراءى من خلال صاحب (الهوى والشباب).

اما العامل الثاني او الابانة العفوية عن الحب الخالد فيعتبر من النوافل عرضه وتفصيله وتعليله . فما ان نلفظ اسم (الاخطل الصغير) حتى يتبادر الى اذهان السامعين صورة امرىء جبل كيانه حسب نمط انف . هو كناية عن قلب تلاقت فيه رقة الحضارة كلها ، وحساسية النفوس الزكية ، وتفاعلت فيه حلاوة الابتسامة الندية ومرارة الآهة الممزقة بحيث يجد فيه قارئه ، في كل مكان وزمان امله ويأسه ، نعيم التملي من الحياة ، وجحيم الكبت والحرمان . فهو لا يقلب بين يديه قوارير قد افرغت من الطيب ، بل يجبهه في صفحات بشارة الخوري صنيع حار ، يلهب عينيه ، ويحرك في اعمق اعماقه ما اغفى من ذكرياته ، او ما اعتمل من واقع يومه وساعته . تقصر دون بلوغ شأوه ـ في تحرير المشاعر البشرية ـ كاتدرائيات المكتفين ثقافيا ، الفائصين في التحليل الفرويدي ، والاكتئاب الاوديبي ، والاثرة النرجسية ، وكل ما يدخل في نطاق التعبئة الفنية العالمية. فبساطة الكلمة، وعفوية التعبير ، وسذاجة العاطفة ، وعافية الخيال .. هذا الرباعي البدهي ، السهل الادراك ، الصعب التقليد هو الذي يبقي قوارير الاخطل الصغير مليئة بالعطر ، عطر تأرج به ابناء الف ليلة وليلة ، كما نلذ به اليوم ، وكما سيهفو اليه ابناؤنا من بعدنا .

جبور عبد النور

صدر حديثا :

الحركة الوطنية الجزائرية

تاليف

الدكتور ابو القاسم سعد الله

اشمل دراسة عن تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر ، تلك الحركة التي انتهت بثورة الجزائر العظيمة وبقيام الجمهورية الجزائرية الديموقراطية والشعبية .

٩ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب ـ بيروت